

الباب الثاني

التربية في العصور الوسطى

٠٠٠ ودق التاريخ أبواب العصور الوسطى ٠٠ ولعل أول من استخدم
تعبير العصور الوسطى ، هم المؤرخون في القرن السابع عشر ليعبروا عن فترة
من عمر البشرية تمتد من سقوط الامبراطورية الرومانية عام ٤٧٦ الى حوالى
١٥٠٠ ميلادية حيث بدأت حركة النهضة الأوروبية . وفى رأى بعض المؤرخين
أن العصور الوسطى بدأت عندما أغلق الامبراطور جستنيان أكاديميات آثينا
عام ٥٢٩ م . ويرى البعض أن نهاية العصور الوسطى حصلت باكتشاف أمريكا
عام ١٤٩٢ م .

الفصل الثالث

التربية المسيحية

أخذت التربية المسيحية أشكالها المحددة فى العصور الوسطى حوالى القرن الخامس الى القرن الخامس عشر ، وقد ظهرت فى جانبه النظرى على يده القديس أوغستين وتلاميذه ، وكذلك على أيدي الكثيرين من جهاذة المسيحيين الذين شكلوا أنماط وطرائق المدرسة المسيحية وخاصة نظام القديس توماس الاكوينى .

ويهمنا أن نشير هنا الى أن الديانة المسيحية قدمت للبشرية مفهوما كريما عن الفرد ، ولم يكن لهذا المفهوم من أثر عاجل فى الشئون السياسية والتربوية ولكنه بدأ يؤثر تدريجيا فى القرون التالية لدعوة السيد المسيح . اختلفت النظرة فى المفهوم المسيحى عنها عند الاغريق والرومان ، فالديمقراطية الاغريقية كانت للاحرار والقانون الرومانى فرق بين السادة والعبيد . ولذلك فقد كانت دعوة جريئة ، المناداة بقيمة كل فرد بفض النظر عن قوميته وجنسه ومكانته الاجتماعية وكونه رجلا أو امرأة . واختلفت المسيحية بذلك عن اليهودية ، وإذا كان اليهود قد أصروا على التربية للجميع فانما يقصدون جميع اليهود ، وإذا أصروا على أن يعرف كل فرد القانون فقد عنوا اليهود فى مجموعهم لانهم يرونهم شعب الله المختار .

وثمة فرق آخر مرتبط بالعدالة بالنسبة للانسان وضعت عند الاغريق والرومان على أسس مدنية ، أى وصمها الانسان ذاته ، أما المسيحية فالعدالة ذات أصل دينى ولذلك لم تؤثر المسيحية على السياسة وانفصل الدين عن السياسة .

ويلوح أن معظم اهتمام المسيحية فى أطوارها الأولى كان متجها لاصلاح المجتمع الوثنى الفاسد ، فقد هاجمت بشدة احتفالات المصارعة التى تسبغ فى بحار من الدم كما عملت على تقييد الطلاق وعلى منع عادة وأد الأطفال : ويمكن أن نقارن بين المسيحية والوثنية فى أن الأولى ارتضت التضحية ، وارتضت الثانية الشهوة ، كما أكدت الأولى العواطف الانسانية بينما حذت

الثانية القسوة والفظاظة ، واحسان وكرم المسيحية ، وتقدير وبخل في الوثنية . ويذكر المؤرخون أن القرون الثلاثة الأولى في تاريخ المسيحية عرفت طهارة وقناعة ، ويرون أن صفحة المسيحية البيضاء هي التي سرت تغلبها على الحياة الرومانية بفسادها وذنسها .

ويطلق على العصور الأولى للمسيحية « عصور التهذيب المدرسى » ، اذ أقبل الناس على هذه الحياة النظيفة لا يبغون من ورائها جاها أو منفعة أو نفوذا أو شرفا ، ولكنهم ارتضوها عن إيمان عميق ، واقتناع صادق .

وقد حاولت الديانة المسيحية الجمع بين القدسية المسيحية والكمال البشرى . وكان هذا الكمال البشرى محتلا قلب طريقة الحياة المسيحية . وقد أثرت فكرة الكمال هذه ، بل هيمنت على التربية المسيحية في قرونها الأولى . كما كان لها شأن كبير على التربية فيما بعد . لهذا فإن القرون الأولى اتسمت بالاهتمام بالجانب الأخلاقي فرجل الدين هو المعلم ، أما المحتوى فهو الكتاب المقدس مع تعاليم ومثاليات المسيحية وقد هدفت هذه التربية لا الى نمو عقل أو اجتماعي وانما الى خلق روحاني .

والقارىء والدارس حياة السيد المسيح يلمس بجلاء إيمانه العميق بأخوة البشر والمساواة بينهم . إيمان جسده خبرته الهائلة بالبشر وبمشاكل الحياة .

وعندما نتكلم - فى مثل هذا الكتاب - عن المعلمين العظام ، نسلط الأضواء على ما امتازوا به من عبقرية التعليم ، ومهارتهم المدهشة فى تبسيط أعقد الأفكار والمذاهب - وقدرتهم الهائلة فى توصيل معتنقاتهم الى سامعيهم . اذ تؤمن وتبسط وتوصل وتنجح فى هذا ، فانك تبني صرحا ضخما من العقول والنفوس . ولكن هذا أمر جد عسير ، بل ان صعوبته البالغة فى أول الثلاثة وهو الايمان ، ولو نجح فرد ما ، كما فعل نفر قليل جدا ، وحقق تلك العمليات الثلاث ، فإن النتيجة يمكن تلخيصها فى بساطة - أرجوا ألا تطيح أو تمس جلالها وروعتها - فى الآتى :

- تتكون معان عند التلاميذ .

- يثار تفكيرهم .

- يقوى ويزداد حب استطلاعهم .

- تنبلج الابتكارية ... وغيرها من الأمنيات العزيزات التي يسمى اليها كل مرب مخلص لمهنته .

وكان المسيح معلما عظيما في إيمانه وتبسيطه وتوصيله .

وسوف نتبين المعالم الأساسية للتربية المسيحية في العصر القبطي في مصر أولا : ثم نتبينها ثانيا في أوروبا .

أولا - العصر القبطي

يرى بعض المؤرخين المهتمين بالتاريخ لأقباط مصر أن العصر القبطي بدأ بدخول المسيحية أرض مصر حوالي عام ٦٠ م أو خلال السنوات القليلة التي تلت هذا العام . وامتد الى سنة ٦٤١ م بالفتح العربي على يد عمرو بن العاص . ولعل هذه المدة الطويلة التي بلغت ست قرون لم تكن في رأى البعض الآخر - ميدانا أينعت فيه (الثقافة) القبطية . بل ان مصر خضعت منذ ٣١ ق.م . للسيادة الرومانية وثقافتها ، والتي كانت بدورها متأثرة بثقافة الاغريق قبل أن يمشى مركب أنطونيوس المنتصر في شوارع الاسكندرية بينما السم يهتك جسم كليوباترا الفتان .

جاءت الثقافة الرومانية/الاغريقية الى أرض مصر لتجد فيها ثقافة اغريقية عمرها زهاء ثلاثة قرون . على أن هذه الثقافة الاغريقية لم تستطع أن تتغلغل الى أعماق أراضي مصر الممتدة باتساع الدلتا وطول الشريط الذي يحف مجرى النيل جنوبا . كما أن بحار الرمال القسيحة وبعض المناطق الجبلية الوعرة ... كل هذا أجبر الثقافة الاغريقية على الانحسار والتمركز في مناطق قليلة محدودة تاركة بقية أرض مصر تنعم بالروح الفرعونية القديمة وتثريها بما يفد اليها من التعاليم المسيحية .

ولم تنهيا للثقافة الاغريقية الفرص للتأثير في حياة المصريين الا حوالى منتصف القرن الثالث . وما لبثت أن اكتملت ونضجت في القرن الخامس^(١) . وفي رأى بعض المؤرخين اعتبار الفترة بين أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع مرحلة تحول ثقافي في البيئة المصرية حيث صدر مرسوم التسامح الديني عام ٣١١ م . وازداد عدد المسيحيين ، واكتمل نظام الكنيسة الرعوى ،

(١) سليمان نسيم : تاريخ التربية القبطية ، ص ٣٤ .

وبهذا - فى رأيهم - ينتهى عصر سيادة الثقافة الاغريقية . ويبدأ العصر القبطى المسيحى الذى استمر الى قرابة بداية القرن الثامن حيث أصبحت اللغة الرسمية للدواوين والأجهزة الحكومية .

ويمكن تقسيم العصر القبطى - من حيث دراسة المؤسسات التربوية . . . الى مرحلتين تليهما مرحلة اضمحلال تدريجى :

(أ) مرحلة اضطهاد الوثنية المسيحية :

فى هذه المرحلة التى امتدت من نهاية القرن الاول قبل الميلاد مع دخول الرومان مصر الى بداية القرن الرابع الميلادى (٣١١ م) بصودور مرسوم التسامح الدينى . وقد عرفنا أن بداية ظهور المسيحية فى مصر كانت عام ٦٠ م : ولكن المسيحيين وقعوا تحت وطأة اضطهاد من الوثنيين . ولكن هذا الاضطهاد لم يمنع جماهير غير قليلة من المهرين اعتناق المسيحية التى امتدت جنوبا الى الشلال والسودان وغربا متخطية حدود مصر مع ليبيا . وتتميز هذه الفترة بانتشار الرهبنة والأديرة ليس فقط هربا من الاضطهاد ولكن لكونها فكرة رسم لها الكتاب المقدس نماذج عدة ، كما ورد ذكرها ضمن تعاليم السيد المسيح .

(ب) مرحلة سيادة الثقافة القبطية :

امتدت هذه المرحلة من أوائل القرن الرابع الى أوائل القرن الثامن . والجدير بالذكر فى هذه المرحلة اعتراف الدولة الرومانية عام ٣٧٩ بالديانة المسيحية كدين رسمى للدولة .

وفى هذه المرحلة أيضا أغلقت جامعة أثينا الوثنية فى حوالى منتصف القرن السادس ، وباغلاقها دخل وثنيون كثيرون فى المسيحية ، كما بدأ نجم الثقافة القديمة يافل .

وقد ظهرت الثقافة القبطية فى الكثير مما أنتجه المصريون خلال تلك الفترة ، فظهرت فى شكل الزخارف المستعملة . . كاتخاذ علامة الحياة (أو نخ أو عنخ) وهى قريبة الشبه بعلامة الصليب ، كما رسموا العذراء تحمل السيد المسيح كما رسموا أيضا مار جرجس يطعن الشيطان بشكل تنين كالاله هورس مممتطيا جوادا وهو يدوس ست اله الشر تحت أقدام جواده (١) .

(١) المرجع السابق ، ص ٩٣ .

كما رسم أقباط مصر على الأقمشة رموزا مسيحية تشير الى بعض المعاني التي وردت فى الانجيل كالحمامة والكرامة والسمة . . وسيادت اللغة القبطية وأصبحت لغة الكنيسة والشعب والمكتبات الرسمية .

وبمجيء العرب الى مصر وشيوع سياسة فيها التسامح أوضح مما كان على يد البيزنطيين بدأت عناصر ثقافية أخرى تسير جنبا الى جنب مع الثقافة القبطية خاصة أن أفواجا من المصريين اعتنقوا الاسلام ، كما أن المسئولين المسلمين لم يجعلوا للدين السلطة الأولى فى تخير أصلح العناصر لتولى مناصب هامة وبانتشار اللغة العربية - وخاصة فى المدن والمراكز الكبيرة بدأت اللغة القبطية تنكمش تدريجيا ببطء .

المؤسسات التعليمية (١) :

١ - المنزل : أولت المسيحية - كما كان الحال فى مصر الفرعونية - اهتماما بالأطفال وتربيتهم ، فقدما أوصى القديس بولس (فى رسالته الى كنيسة أفسس اصحاح ٦ : ٤) وفى الكثير من رسائله - الآباء بأن يولوا أولادهم عنايتهم ورعايتهم ، بل انه حذرهم من مقبة سوء معاملتهم لهم بقوله : « أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم لئلا يفشلوا ، بل ربوهم بتأديب الرب وانذاره » . ومعنى غيظ الأبناء يحمل ضمنا معنى العطف والاحتمال . كما أن القديس بولس يوصى فى نفس الوقت الأبناء بطاعة والديهم قائلا : « أيها الأولاد أطيعوا والديكم فى الرب لأن هذا حق » ، « أكرم أباك وأمك التى هى أول وصية بوعد لكى يكون لكم خير وتكونون طوال الأعمار فى الأرض » .

كما حرصت المسيحية على استقرار الأسرة على أسس روحية ، فشبهت علاقة الزوج بزوجه كعلاقة الرأس بالجسد ، للزوج التدبير والتوجيه ، وعلى الزوجة الطاعة والتنفيذ ، على أن تقوم العلاقة بينهما على أساس المحبة ، وأن يخضع كل منهما لصاحبه فى خوف الله .

ويذكر أيضا عن تأثير البيئة المنزلية فى تثبيت دعائم القيم الروحية والحلقية أن بعض المنازل بالاسكندرية وما حولها كانت تخصص حجرة للعبادة كانت تمارس ألوان للعبادات المختلفة كالصوم عن الطعام والشراب ومتع الجسد ، والتفرغ للقراءة والصلاة وترتيل الألحان . . الخ .

(١) عن المؤسسات التعليمية ، انظر المرجع السابق ، الفصل الخامس .

٢ - الكنيسة : لم تقتصر الكنائس - كما عرف عن دور العبادة في سائر الأديان - على مجرد كونها أماكن يتعبد فيها الناس ويؤدون شعائر دينهم فبجوار دور العبادة أقيمت مدارس ، بل كانت كما ذكر يوسابيوس القيصرى مؤرخ الكنيسة فى القرن الرابع ، مدارس للتعليم عرفت باسم « مدارس الحوار » عن طريق السؤال والجواب . وقد عملت الكنيسة بوظيفتها الروحية والتربوية على تحقيق الهدف الأساسى من (التربية المسيحية) وهو تحقيق غرض الله من خلقه الانسان : أن يعبد و يحفظ وصاياه ليكون له نصيب فى ملكوت السماء . وكانت وسيلة تحقيق ذلك تتطلب تجديد سلوكه ليصبح سلوكه روحياً . لذلك فقد وجهت التربية المسيحية الأفراد الى تدريبهم على تكوين ارادة حرة تمكنهم من اختيار السلوك المسيحى وتجنب السلوك المخالف لتعاليم المسيحية ، هذا من وجهة نظر المربين المحدثين فى تحليلهم العصرى لدور الكنيسة التربوى فى مصر القبطية . وقد توصلت الكنيسة الى تحقيق أهدافها بعدة وسائل واجراءات منها : نوال الطفل سر العماد ويتم هذا فى الأشهر الثلاثة الأولى من عمره ، وتنوب عنه أمه فى الاعتراف بالمسيح وتتعهد أمام الكاهن أن تربيته تربية أفضل . كما توجه الكنيسة الى الوالدين بهذه المناسبة نصائح هامة فى تربية طفلها .

وعندما يصل الطفل الى مرحلة البلوغ توجهه الكنيسة الى ممارسة «سر التوبة» وهنا يعترف الفرد بالخطأ على أبيه الروحى وهو الكاهن . والملاحظ هنا فى ممارسة سر التوبة والاعتراف ، الاهتمام الخاص بكل عضو فى الكنيسة فى ضوء ظروفه النفسية والاجتماعية والعقلية والصحية .

هذا ، ويرى مؤرخو الكنيسة القبطية فى مصر أن الطقوس التى كانت تمارسها الكنيسة هى ذات رسالة تربوية مستمرة تدعو المسيحيين الى ديمومة دمجهم فى الحياة الكنسية بما فيها من ورع وطهارة . كما أن الصلوات والقداسات التى كانت تمارس فى الكنيسة القبطية بما فيها من موسيقا جمعت بين الحان الفرح والحزن والحشوع جعل منها وسيلة فعالة لتربية الوجدان .

ويذكر أيضا اهتمام الكنيسة القبطية بالتعليم عن طريق المثل العليا الممثلة فى أشخاص الشهداء وأعمالهم وتضحياتهم ومنجزاتهم ، وهم بذلك يضعون ركائز لأسس تربوية مشتقة من الواقع يمكن أن تفيد أجيال المسيحيين الصاعدة ، كما أن كتابات الآباء فى التربية الروحية وأقوالهم

اعتبرت ذخيرة لها وزنها التربوي ، حتى قال عنها بعض المؤرخين أنها « نظرات روحية عميقة وحكمة سماوية عالية » . ومن بين هذه الكتابات « كتاب الراعى » لهرماس وكان هرماس قسيسا فى كنيسة القرن الأول وقد حوى مجموعات من التعاليم والوصايا . وهناك أيضاً « كتاب المربى » لاكليمينضس الاسكندرى وكان يستخدم كمصدر للتعليم المسيحى فى العصر القبطى .

والى جانب هذا الدور الروحى الذى قامت به الكنيسة فى مجال عملها كمؤسسة تربوية ، فانها كانت مؤسسة للتربية الاجتماعية والأحوال المدنية ، فقد عملت على تأكيد قوانين الزواج والطلاق وحماية الأسرة والطفولة ، كما أنها وقفت ضد الاسترقاق .

٣ - المدرسة : يذكر المؤرخون أن أول مدرسة مسيحية أقيمت بمصر كانت بالاسكندرية عام ٥٨ م ، وأنشأها القديس مار مرقس ، وكانت تهدف الى تعليم المصريين المسيحيين حقائق الدين الجديد . ولما ازداد العدد بين الحضور مع تفاوت فى أعمارهم خصص للصغار مدارس ولل كبار أماكن فى مدارس الموعوظين . ولعل نظرة اجمالية للتعليم فى العصر القبطى تبين مرحلتين واضحتين : مرحلة التعليم الأولى وكان ميدانها الأول المنزل ، ثم المدرسة الابتدائية التى ألحقت اما بكنيسة أو دير ، وكانت المرحلة الثانية مرحلة تخصص ، وقامت أساسا على التلمذة لمعلم خاص من جانب المدرسة اللاهوتية التى تؤهل الدارس فيها لوظيفة الشموسية أو الكهنوت ، أو للتدريس بالمدرسة نفسها .

مراحل التعليم :

(١) التعليم بالمرحلة الأولى : وكان اجباريا وبالمجان حيث ألحقت المدارس بالكنائس أو الأديرة . ولم يكن هناك سن معينة للالتحاق بهذه المرحلة الأولى ، كما لم تحدد مدة الدراسة . ودرس تلاميذ هذه المرحلة التى ربما التحقوا بها فى سن الخامسة ، اللغة وتعاليم الكتاب المقدس واستظهروا بعض المزامير والألحان الكنسية ، هذا أساس يضاف اليه تعليم بعض مبادئ الرياضة كحساب المساحات والموازين والمكاييل ... الخ .

أما الكبار فكانت لهم مدارس الموعوظين التى فتحت أبوابها للراغبين فى الدخول فى الايمان ، وكان الطالب يمر فى مراحل ثلاث فى فترة امتدت

الى عامين أو ثلاثة أعوام حتى يعد للعماد بعد أن أخذ فكرة عامة عن المسيحية واستمع فى الكنيسة الى القراءات الكنسية وتفسيرها .

(ب) مرحلة التعليم العالى : ولعل أبرز ما يملتها هى جامعات اللاهوت التى انتشرت فى ربوع العالم المسيحى شرقا وغربا . ولم تعرف جامعات اللاهوت مبان خاصة بل كان الأساتذة يستقبلون طلبتهم بمنزلهم أو فى أماكن يرون أنها لائقة . وقد شاع نظام «الطالب المتجول» الذى يرحل من جامعة الى أخرى سعيا وراء مزيد من العلم . ومما يذكر أنه لم تكن هناك مناهج مقررة ، وكانت للأساتذة حرية تخير ما يرونه مناسبا فى اطار من الخطوط العريضة المتفق عليها . ويذكر أن مناهج التعليم العالى بالمدرسة اللاهوتية بالاسكندرية اشتملت على تعليم أصول العقيدة مع تفسيرها وشرحها ، كما اهتمت بالدراسات العلمية البحتة كالهندسة وعلم وظائف الأعضاء والفلك وكذلك اهتمت بالفلسفة والشعر والأخلاق لتنمية قوى التفكير والملاحظة .

وكانت أبرز المدارس العليا اللاهوتية بالاسكندرية ، غير أنه وجدت بالصعيد . والصعيد الأعلى مراكز دراسة لاهوتية وأدبية . بل وجدت بردية قبطية فى الدير الأبيض وهو من أديرة الانبا شنودة عند سوهاج ما يدل على اهتمام القبط بالدراسات الطبية .

هذا ولعل نظرة أخيرة وسريعة على التربية فى مصر القبطية تظهر اهتماما بالتعليم الدينى مع رعاية واضحة للعلوم الدنيوية . وأن تشجيعا الى التعلم والتعليم جذب أعدادا غير قليلة من المسيحيين الى الالتحاق بدور العلم . ويذكر أن الديانة المسيحية لم تعترض على تعليم البنات بل دعت الى اشتراكها فى الخدمة وجعلت منها شماسا أى معاونة للراعى فى خدمة السيدات . . . ولم تتخلف المرأة القبطية عندما أنشئت الأديرة - عن الرهبنة . ويذكر أن القديس انطونيوس سلم أخته لأحد أديرة العذارى المنتشرة بجوار الكنائس .

والقديس انطونيوس هو أول معلم فى الرهبانية (٢٥٠ - ٣٥٦ م) . وقد هرع اليه فى صومعته التى انعزل فيها عدد من المتحمسين لحياته . وفى سنة ٣٠٤ م أنشئ أول دير يضم التلاميذ حول معلمهم انطونيوس على جبال الهضبة الشرقية .

وفى عام ٣١٤ م اعتنق جندى بيزنطى المسيحية وعكف على دراسة مبادئها وتعلمذ باخونيوس الجندى على القديس بليمون ، ثم انصرف الى مكان بالقرب من قنا فى مواجهة دندرة لحياء حياة التقشف والتوحيد . ثم اتصل به عدد من التلاميذ تزايد عددهم حتى ضمنتهم تسعة أديرة ، ثم اتسعت حركته لتضم ديرين للعدارى . واشترط فى الالتحاق بالدير الامام بالقراءة والكتابة . واشتمل جدول المدرسة فى الدير ثلاثة دروس يومية لم تكن كلها مكرسة للأمور الدينية . ولعل من أهم ما أسهمت به الأديرة نسخ المخطوطات والكتب . والملاحظ أن أديرة باخونيوس ، وأديرة شنودة اهتمت الى جانب النسخ ، بالتعليم المهني كصناعة الحصر والمقاطف والحداة والنجارة والفلاحة وفتل الجبل الليف والحياكة والطهى وأعمال الخبز والعجن ، وأعمال البناء . وللأديرة يرجع فضل فى حفظ التراث العلمى والثقافى المصرى ، ولها دور فعال فى مقاومة البدع والخرافات .

أما عن اعداد المعلم فى مصر القبطية ، فقد اشترطت الكنيسة أن يكون طاهرا نقياً على خلق ، وأن يواصل ويواظب على الدرس والتحصيل . وكان الشماس يتكفل عادة بتعليم الموعوظين ، أما القس والاسقف فتكفلا بأعمال الرعاية الأخرى وخاصة تثبيت المؤمنين والرد على الهرطقات . ومما يذكر أن المعلم لم يكن بشهادة أو بعد حصوله على مؤهل دراسى ما ، وانما كانت تكفى شهادة بأنه درس على علم معروف وأنه قادر على تعليم غيره ، فاعداد المعلم وتخريجه ، كان أساسا قائما على فكرة التلمذة .

ومع دخول الاسلام أرض مصر واقبال الأفواج الغفيرة الى اعتناقه لما فيه من تسامح رفع الانسان الى درجة لم يشهدها فى هل الاضطهاد البيزنطى ، اضطهاد كرامته وسطو على أمواله ، واعتداء على حرياته . ومع كثرة عدد المسلمين المتخربين دين الله عن اقتناع ، مضافا اليه قلة ممسلة وفدت الى أرض مصر . . بدأت اللغة العربية تنتشر تدريجيا لتحل محل الاغريقية ومحل القبطية . وبدأت ثقافة جديدة ينبجج فجرها لتغمر العالمين ولتتسبد عدة قرون .

وجدير بالذكر أن العصر القبطى بما شهدته من رهينة وديرية كان له فضل لا ينسى على نشر الفكرة فى أوروبا العصور الوسطى كما سيأتى بيانه فيما بعد .

ولعل الدارس لتاريخ التربية يقف لحظة متأملا القرن الثامن الميلادى فى مصر الاسلامية . وقد امتد سلطان المسلمين حتى شمل بلاد الأندلس غربا فى شمال مرفرفا ألويته على جزائر فى البحر المتوسط وممتدا شرقا الى الهند وجنوبا الى البحر العربى ، يقف الدارس متأملا فى التربية فى مصر فى هذا القرن من الزمان وقد بدأ المصريون يتقبلون الثقافة العربية الاسلامية بغير قليل من الحماس بينما تنحسر الثقافة الاغريقية - الرومانية - القبطية لتتمركز فى مراكز قليلة متفرقة ولا يعنى هذا تقيلا من شأنها . ولكن عجلة الزمن فى دورائها تتقدم متطلعة ومتقبلة الحديث المتطور .

وكانت العصور الوسطى - فى رأى المؤرخين المحدثين - قد بدأت منذ زمن طويل ، ولكن البداية التاريخية أو المؤرخة والمدونة على ورق فى كتب لا تعنى أن تغيرا طرا على المجتمع . استلزم الأمر مئات قليلة من السنوات لتلمس البشرية هذا التطور .

ثانيا - التربية والثقافة الأوروبية فى العصور الوسطى

تحدد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات الأوروبية فى العصور الوسطى فى المعالم الآتية :

١ - شيوع الاقطاع :

فى خلال القرنين التاسع والعاشر أخذ النظام الاقطاعى ينمو باطراد وقد مهدت له حركة التطور العام نحو المحلية ، حتى اذا جاء القرنان الحادى عشر والثانى عشر لم تكن هناك حكومات مركزية ، وتحول ولاء الجماعات الى السادة المحليين ممن تأسست على أيديهم أسرات اقطاعية كبرى ، ترجع أصولها فى معظم الأحوال الى القرن العاشر الميلادى . بل أصبح امتلاك الأرض مقترنا بحق امتلاك الحكم والسلطان ، وامتلاك الأرض يعنى امتلاك من عليها وما عليها . وأصبحت الأرض والسلطة ممتزجين بعضها ببعض . ومن ثم نشأت بين السيد والمسود علاقة تقوم على عدد من التعهدات والالتزامات متبادلة بين الطرفين . وكان هناك السيد الكبير ، وقد يكون الملك أو لوردا ، وهو مسيطر على مجموعة من البارونات يمنح كلا منهم أرضا فى مقابل أن يؤدى البارون لسيدته خدمات حربية معينة ويتعهد بالمثل أمام محكمته الخاصة للفصل فى قضايا التابعين . والبارون بموجب النظام الاقطاعى هو الحاكم فيما تحت يده من الأراضى ومن عليها من السكان .

٢ - ظهور المدن :

بقيام جماعة التجار وتكتلهم معا للقيام بأعمالهم مجتمعين وانشاء أماكن مستقلة عن قلعة البارون أو النبيل ، بدأت تتكون طبقة تسكن (الضواحي) على مقربة من القلاع الكبيرة أو في حمى دير كبير ، على أن تكون على طريق رئيسى ييسر نقل البضائع ، وكانت هذه الضواحي بداية ظهور المدن فى أوربا ، على أن قيام أية مدينة كان يتطلب منحها (براءة) يصدرها الملك أو النبيل أو الأسقف ، ويمين فى البراءة السكان ورعيتهم وإدارة المدينة والامتيازات التى تمنح لها . وكان سكانها غالباً من البرجوازيين (الطبقة المتوسطة) وهم من التجار والصناع المتحررين من ربة القنية الإقطاعية .

٣ - التجارة :

يرجع الفضل للحروب الصليبية فى توسيع مدى التعامل التجارى بين أوربا والشرق ، كما أن التجارة فى أوربا ذاتها بدأت تثير اهتمام الملوك والأمراء للعمل على تحسين الطرق وإقامة الجسور على الأنهار ، لما فى ذلك من فوائد تزيد ما يدخل خزائنها من ذهب . كما وضعت القوانين لحماية التجار من اللصوص والقراصنة ، وظهرت التحسينات فى بناء السفن ليزيد حجمها فتحمّل أكثر . وكانت أوربا تستورد من بلدان الشرق العربى التوابل والبرتقال والمشمش والتين والزبيب والعقاقير والأصباغ والأقطان والحرير الحام والمشغول مثل أقمشة الدمقس (دمشق) والموصلين (الموصل) والبلدشين (بغداد) والشاش (غزة) ، وكانت أوربا تصدر للشرق العربى الحشيش ، والسلاح ، والأصواف ، وأدوات زراعية وخزفاً . الخ .

٤ - النقابات :

كان الانتاج الصناعى الذى بدأ ينمو فى أوربا بحاجة الى من ينظمه ويحميه وقد أخذ الصناع منذ أن بدأت قيمتهم فى مجتمع المدينة تقوى بانشاء جماعات (طوائف) صناعية تهتم بشئونهم ، وكان بعضها يقوم على أساس دينى ثم تطور الى النواحي الاجتماعية والاقتصادية . فظهرت النقابات الصناعية والتجارية فى أكثر المدن الأوروبية (١) .

(١) من أهم المدن : البندقية (١٩٠ ألف نسمة) - لندن (٤٦ ألف سنة) - بروكسل (٤٠ ألفا) - ستراسبورج (٢٦ ألفا) ثم ميلان وجنوة وفلورنسا ، وكان يسكن كل منها حوالى مائة ألف نسمة .

وكان أعضاء النقابة ثلاثة أقسام على أساس درجة العضو في اتفاق الصناعة : التلميذ - الأجير - المعلم . وكان يدفع رسوما قبل أن يصبح عضوا ، وكان يسكن بيت المعلم ويأكل عنده ، ويخضع لرقابة معلمه الصارمة الشديدة ، وتتراوح مدة التلمذة بين سنتين وسبع سنوات على حسب الصناعة ثم يصبح التلميذ أجيرا ثم اذا أثبت تفوقا وشهد له بذلك فتح مصنعا .

وكانت هناك نقابات للتجار ، هدفها حماية أعضائها ضد النبلاء وتأمين معاملة عادلة في الأسواق البعيدة ، وللتأكد من مراعاة القوانين التجارية داخل المدينة ذاتها . وكثيرا ما كانت نقابات الصناع تتعاون مع نقابات التجار في تنظيم الناحية الاقتصادية .

٥ - الحياة الدينية :

تمركزت الحياة الدينية في أوروبا المسيحية في العصور الوسطى حول محورين الأول هو البابوية باعتبار أنها الرياسة العليا للكنيسة ، والثاني التنظيمات الكهنوتية ، ويهمننا من المحور الثاني الرهبنة وأنظمتها المختلفة ، فعندما كان يعتور الحياة الروحية فتور كان يعيد إليها الحيوية نظام رهبنة جديد ، بل اتخذ النظام الروحي أحيانا مزيجا من الرهبنة والعمل العسكري، كما وجد في الفرق الدينية الثلاث وهي : الهيكليون ، وفرسان المستشفى ، وفرسان التيوتون . كما حاولت الكنيسة برجالها ورهبانها أن تخفف من ويلات الصراعات التي استمرت أجيالا طويلة للتنازع على السلطة ابان العصر الاقطاعي ، فقام رجالها منظمين السلم الالهي وفرض الهدنة الالهية ، وفيها يمنع القتال في أيام معينة . وكانت محاولات لم يكتب لها نجاح كبير .

التربية في العصور الوسطى في أوروبا :

يمكن تلخيص المثل العليا المسيحية في العصور الوسطى بأنها أكدت :

- ١ - القيمة الكبرى للمسائل الروحية .
- ٢ - الاهتمام بالحياة الآخرة .
- ٣ - التساوى الروحي للخلق أمام الله .
- ٤ - شرف العمل وتطبيق مبادئ العدالة في العلاقات بين الأفراد العاملين .

٥ - وحدة البشر •

٦ - أن أول واجبات الفرد خدمة ربه وزملائه ونفسه •

ولكن الواقع العملي في تلك العصور لم يسم إلى هذه المثل • بل لقد طغت على العقل الحرافات والبدع والأوهام ، وكان العقل يخافها جميعا • فما زالت فيه آثار من وثنية طمرها التاريخ • كان العقل يميل ناحية الجماعة فيلفظ المارقين على التعاليم الكنسية المتفق عليها • كما كان عقلا شغوفاً بالعالم الآخر • فتطلع من الأرض إلى السماء ، ومن المحدود إلى اللانهاى ، ومن المؤقت إلى الخالد ، ولكن بدأ يتغير بتأثير نمو التجارة وظهور البورجوازية والحروب الصليبية واحتكاك الأوروبيين بثقافات العرب وغيرهم •

وكان هدف التربية في العصور الوسطى مشتقا من الظروف الاجتماعية فهدفت إلى خدمة الرب والكنيسة والخلق والنفس ، وبهذا يكون للتربية غرض مزدوج مؤكداً على مطالب الكنيسة ومطالب الحياة ، ومع ذلك فإن المدارس ، عدا الجامعات ، منحت تربية عامة ذات طابع أدبي ديني ، وفيما يلي عرض سريع لجوانب هذه التربية :

١ - حركة أحياء العلوم :

في عصر شارلمان الذى أسس الامبراطورية الرومانية المقدسة عام ٨٠٠ م حاول ، ونجح في محاولته ، أن ينقل الثقافة الرومانية ، ويوفق بينها وبين ثقافة جماعة البرابرة الذين اعتنقوا المسيحية ورمى من محاولته إلى تكوين وحدة داخلية ثقافية تربط بين سكان امبراطوريته ، وقد اعتمد شارلمان في محاولته على كثيرين من رهبان الأديرة ومنهم الكوين *Aleuin* .

كما أصدر شارلمان في عام ٧٨٧ م أوامر إلى جميع أساقفة فرنسا ورؤساء أديرتها يلومهم فيها على استخدام الألفاظ الحشنة و « الألسنة غير المهذبة » (١) كما حث كل كنيسة ودير على إنشاء مدارس يتعلم فيها رجال الدير وغيرهم الكتابة والقراءة ، وحرص على أن يساوى في التعليم بين القنة والأحرار ، كما أدرج في هذه المدارس تعليماً طبياً بما كان شائعاً من خرافات وأوهام ، وكان يدرس بهذه المدارس الحساب والنحو والمزامير والموسيقى والغناء •

(١) وهيب إبراهيم سمعان : الثقافة والتربية في العصور الوسطى ، ص ١٧٥ •

ومن أشهر المريين في القرن الثامن الميلادى ، الكوين Alcuin (٧٣٥ - ٨٠٤) الذى رأس دير Tours وجعل منه مركزا للثقافة العلمية فى فرنسا . ومن رأى الكوين رفض دراسة الآداب القديمة مع عناية خاصة اهتم بها فى المظهر الصوفى ، وقد اهتم الكوين بدراسة الفنون العقلية الحرة السبعة (وهى الحساب والهندسة والفلك ، والتناسق الموسيقى ، والمنطق ، والبيان ، والفلسفة) ، وكان يقول بجعلها أساسا للتعليم لأنها الاساطين التى قام عليها معبد الحكمة .

٢ - التصوف :

وكان للتصوف علاقة كبيرة بالأديرة ، ولذا كان المتصوفون من الرهبان ، وهدف المتصوف الأسمى من الحياة ، الوصول الى الكمال الروحى والعلمى ، وليصل الى هذا الهدف كان عليه أن يعمل كل ما يأتى عن طريق الحواس ، فيعتزل الفرد عن هذا العالم منكمشا فى نفسه حتى تفنى شخصيته فى عالم الأرواح وتندمج فى اللانهاية ، يرى المتصوف ما لا نراه وتنكشف له العجائب ويعرف الأسرار الباطنية . والتصوف كأسلوب تدين هو أوسع التجارب الروحية ، كأسلوب فلسفة هو أشدها توغلا فى المعنوية والمثالية المجردة ، وكأسلوب التربية هو غاية الفكرة التهذيبية .

أما عن تربية المتصوفين فقد اهتمت بقيمة التفكير وأثره فى تنمية العقل من الناحية التأملية . وتؤمن هذه التربية بايمان المتصوفين بثلاثية طبيعية الروح ، فلها جزء حيوانى مرتبط بالجسم ، وجزء مفكر هو مظهرها الانسانى ، ثم جزء روحانى يرتفع عن مستوى الانسانية حيث يلتقى الانسان بالعقل الأسمى أى العقل المقدس . ويمكن أن نفهم الله وأن نصل الى اللانهاية الحقيقية عن طريق التحليل والتجريد - عن طريق اهمال جميع المؤثرات الحسية والانغماس فى أفكار الانسان الذاتية (١) .

وكانت أولى مراحل التربية الصوفية تلك التى يعمل فيها الفرد على التخلص من كل ما من شأنه أن يحجب عنه رؤية الكائن المقدس ، ومن المؤثرات الحسية ومن الملذات المادية والمتع العالية ، فالفرد فى هذه المرحلة يجاهد ضد الحياة الخارجية ثم يصل الفرد فى المرحلة الثانية ، وهى مرحلة

(١) منرو : المرجع السابق ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

- اضاءة الحياة وتنويرها فيقوم المتصوف بالأعمال الطيبة من تلقاء نفسه .
- وهو هنا يجاهد داخليا . أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة الاتحاد والحياة .

٣ - الفروسية :

ارتبطت الفروسية بالمثل العليا الاجتماعية الراقية . ومنزلتها في الحياة الدنيوية كمنزلة الرهبنة في الحياة الدينية ، والأصل في الفروسية عمل اجتماعي أقرته الكنيسة وعهد به الى الفرسان الذين أهلتهم قدراتهم ومكانتهم المادية من مد يد العون لغيرهم . ولكي يصبح الفرد فارسا ، يخضع لنظام تربوي قوامه الأعمال البطولية والتهذيب ، فالفارس فرد مطيع مستقيم متعاون . وطبيعي أن هذه التربية اقتصرت على طبقة الأحرار الأثرياء القادرين على القيام بمهام الفارس وقد سارت الفروسية جنبا الى جنب مع الاقطاع مكونة كيانا خاصا داخل المجتمع ومحتلة مكانة صامية فيه .

والفارس سيد بمعنى الكلمة ، فوعده مقدس وشجاعته لا يتطرق اليها شك ، ويمجد النصر الحربي ، ومع هذا فقد كانت له أحيانا نزوات من الغضب الجارف وقد أعطت الفروسية لمجتمع القرون الوسطى مثلا عليا في معنى الطاعة واحترام النظام والذات والخدمة ، وقد تأثرت في هذا بتعاليم الكنيسة التي علمتهم كيف يحترمون الضعفاء ويندفعون للدفاع عنهم ، ومع ذلك فأحيانا كان الغضب يدفع الفارس الى سرعة سفك الدماء ، بل وقد يكون ذلك على حساب الضعفاء .

وتقسم تربية الفارس الى مرحلتين ، مرحلة تربية الغلام وهي من سن السابعة الى الرابعة عشرة ، ثم مرحلة البالغ الى سن الحادية والعشرين . وفي المرحلة الأولى كان الغلام يقوم بالخدمة في إحدى القلاع وخاصة خدمة السيدات ثم يخدم على الموائد بعد أن يكبر ، ثم يقدم في مرحلة النبوغ عددا من الخدمات لسيدته ، ثم يصبح الخادم الشخص المباشر للفارس في المعركة والحفلات العامة ، وكان أهم ما يتعلمه الشباب ، الحب والدين والحرب ، فيتعلم كيف يرق ويتعطف ويتلطف ويتخير أنسب الكلام وأغذبه ، ويقرض الشعر والعزف على آلة موسيقية هي القيثارة مع الترنم بأغنية جميلة ، ويتعلم كيف يلعب الشطرنج ويسلئ النساء ويبعث السرور والمرح الى الأفتدة . هذا الى جانب ركوب الخيل والمبارزة وفنون القتال المختلفة والصيد بأنواعه ، وتعليم ديني يلف كل هذا بطبقة حامية مانعة من الوقوع في الرذيلة ، بل كان يقوم بطقوس دينية للتطهير ، ويجب عليه أن يبارك سيفه على يد قسيس .

ثم يقسم الفارس فى حفل كنسى على الدفاع عن الكنيسة والنساء والفقراء .
أما تربيته العقلية فكانت ضحلة اللهم الا من تعلم الفرنسية وكانت لغة
الفروسية فى العصور المتأخرة من القرون الوسطى .

٤ - الرهبنة والديرية :

تنوعت الرهبنة فى المسيحية ، فهناك الراهب المتبتل فى خشوع
الذى يتخذ له مأوى وسكنا بعيدا عن العمران كالصحراء مثلا ، وعرفت
العصور الوسطى أيضا الراهب الجوال الساعى فى الأرض ملتفا بحياة
دينية صارمة ، وهناك أيضا المتصوف الزاهد فى صومعته ، ثم اليسوعى
العقري الذى يعمل فى المدرسة . وفى الفترة بين القرنين السادس والثالث
عشر لم يكن هناك من المؤسسات التربوية ما يحمل لواء النواحي العقلية
سوى المدارس الكاتدرائية التى يدرس بها جماعات الرهبان .

ولا يتبادر الى الذهن أن الرهبة من اختراع المسيحيين فقد عرفها
المصريون القدماء والفرس واليهود والاعريق ، وكانت ترمى الى الوصول
بالروح لاسمى درجات الكمال والزهد فى ماديات الحياة الدنيا بكبح النفس
عن الشهوات والصيام والتعذيب والنشاط البدنى المستمر والنظر الى
المطالب الدنيوية نظرة ازدراء . وقد وجد مبدأ التصوف فى تعاليم المسيح
أكبر مشجع لها ، تلك التعاليم القاضية ألا يفكر الانسان فى غده وأن يبيع
ما يملك ويعطى الفقير ، وأن يترك المرء أباه وأمه وزوجته وأولاده فى سبيل
الله . وكذلك فى نصائح السيد المسيح المتكررة القاضية بأن يحقر الانسان
من أمر الدنيا ، ويكرس حياته لخدمة الانجيل ونشر تعاليمه (١) : ومما يساعد
على الرهبنة وتطورها ما أصاب المسيحية من اضطهاد فى سنيها الأولى مما
أدى ببعض المتحمسين الى الاعتصام بالجبال والكهوف ووحشة الصحراء فى
انتظار عودة المسيح ثانية .

واتسمت الحياة الديرية بالتهذيب والعمل والتدريب ، فمثلا أديرة
بنديكت كانت تحدد يوميا سبع ساعات للعمل اليدوى أو الأدبى ، ومن
ساعتين الى خمس ساعات للقراءة ، وبذلك أتاحت الفرصة للدراسة داخل
جدران بعض الأديرة التى حفظت الكتب فى خزانها ، وكان هناك متسع من

الوقت لعمليات النسخ والكتابة والقراءة . واختلفت الأديرة فيما كان يدور داخلها من تعاليم وتحصيل فقد ازدهرت الدراسة في بعضها بينما أقفرت في بعضها الآخر الذي لم يكن فيه أكثر من عدة نسخ لكتاب واحد . ويلوح أن الغالبية كانت من النوع الأخير الذي ارتأى في الدراسات الأدبية القديمة التي حرمتها الكنيسة مغريات وأمور دنيوية تتعارض مع حياة النساك والتقشف ، أضف الى ذلك تعدد المذاهب المسيحية ، حتى في ذلك الوقت المبكر من المسيحية حيث بلغ عددها أيام القديس أوغسطين ٨٥ مذهبا .

وعرف التعليم في داخل الأديرة على نطاق ضيق ضئيل ، فهو يتضمن القراءة والكتابة والفناء وحساب التقويم الكنسي ، وكان ذلك وقفا على عدد قليل ممن سينخرطون في سلك الرهبنة التي لم تقبل سنا أقل من ١٨ سنة ، ثم يدرس الطالب سنتين . أما قبل هذه السن فلم يكن هناك تعليم يذكر . ويذكر أن شارلمان اعتنى بمدارس الأديرة بمساعدة الكوين وزيره ، فطورها حتى لا تقتصر على مجرد الاعداد للحياة الديرية فقط ، وعلى العموم فإن الأديرة استأثرت بالتعليم واحتكرته حتى القرن الحادى عشر ، ويلوح أن هذا كان مناسبا لحياة الناس الذين كان يهمهم التعليم بقدر اهتمامهم بحياة القتال والحروب والتدمير .

وثمة مكرمة أسدتها الأديرة للتربية والتعليم جاءت من وحي النظام اليومى للناس ، فقد أعفى بعض النساك من الأعمال العضلية الشاقة وكلفوا عوضا عنها بنسخ المخطوطات من الأديين اليونانى والرومانى القديمة ، ويظهر أن أديرة الرهبان أسهمت بقسط كبير فى عمليات النسخ هذه ، ويساورنا الشك فى أمانة النقل ، فتدل شواهد تاريخية على أن الرهبان أفنوا وأزالوا ما تعارض مع عقيدتهم من كتابات وأقوال .

واذا كان العرب قد احتفظوا ببعض التراث الاغريقى والرومانى وترجموا منه ومزجوا بينه وبين ثقافتهم وغيرها من الثقافات ، ثم انتقل الى أوروبا ووصل الى الأديرة ، فانها (الأديرة) أبقت على هذا التراث ، بل حوت خزائن الكتب فيها كنوزا ثقافية صانعتها من عبث برايرة الشمال .

ويلوح أن عدوى الاهتمام بالكتب وحفظها عند بعض أثرياء وأشراف الأندلس من العرب ، قد انتقلت الى قلاع الأشراف ، فقد أعجب هؤلاء تقاخر الأديرة بما فيها من كتب ، فزينوا قلاعهم بمكتبات أضحت منافسة للمؤسسات القديمة فى هذا السبيل . واستمرت القلاع والأديرة خزائن للكتب حتى اخترعت الطباعة وانتشرت الجامعات وورثت هذه المهمة .

واذا كان الرهبان قد اتخذوا من نسخ الكتب موردا للرزق ، فانهم أنتجوا انتاجا أدبيا عن حياة القديسين ، وقصصا أخلاقية مختصرة وشرحا للكتاب المقدس وتاريخ الأديرة ، وغير ذلك من الانتاج الذى سما بعملهم عن مجرد النقل والنسخ فهم الذين كتبوا فى الفنون العقلية السبعة الحرة Studium generale (أو ما يطلق عليها الدراسات الأكاديمية) التى تضم جميع العلوم التى كانت معروفة وقتئذ . وقد سبق أفلاطون بأن فرق بين مجموعتين من هذه العلوم ، مجموعة المواد الثلاثية ، والمجموعة الرباعية . والأولى تقوم على دراسة الأدب دراسة بلاغية نحوية ، (القواعد والبيان والنحو) والثانية تهتم بالدراسة العملية القائمة على دراسة العلوم الرياضية الحساب والهندسة - والفلك والموسيقا .

ومما هو جدير بالذكر أن الهندسة التى كانوا يدرسونها فى تلك الأزمنة كانت تشتمل دائما على مبادئ الجغرافية ، ويشتمل الفلك على الطبيعة . والنحو يشمل الأدب ، ويضم البيان ضمن أبوابه التاريخ .

٥ - الحركة المدرسية :

وهذا اصطلاح أطلق على الحياة التعليمية والتربوية من القرن الحادى عشر الى الخامس عشر ، وتمخضت عن ظهور الجامعات . والحركة المدرسية أسلوب من أساليب النشاط العقلى ، فقد عهدنا الحياة العقلية فى الشطر الأول من العصور الوسطى خاضعة للكنيسة خضوعا شديدا . ومع مجيء أفكار وثنية من الشرق ، وذهاب الحملات الصليبية الى الاراضى المقدسة وتأثيرات العرب الفكرية ، كل هذه أثارت التفكير والتساؤل عن سلطان الكنيسة العقلى ، وهزت العزلة التى عاشتها الحياة العقلية فى الغرب ، وهدفت الحركة المدرسية الى الاستعانة بالعقل فى الدفاع عن العقيدة ، وتقوية الحياة الدينية والكنيسة عن طريق تقوية المواهب العقلية ، والقضاء على الشك والحاد والهرطقة عن طريق المناقشة . وكان الصراع بين العقل والسلطة الكنسية ... ولكنه صراع من أجل التوفيق .

ومن خلال هذا الهدف تبلورت رسالة الحركة المدرسية يمكن تلخيصها فى الرغبة فى صياغة المعتقدات فى أسلوب منطقى ويدافع عنها منطقيا ، ولكن فى غير تشكك فى سلطة الكنيسة ، ثم تنظيم المعرفة وصبغها بالصبغة العلمية الشكلية ، ثم المام الفرد بتلك المعارف المنظمة . وتظهر روح التوفيق فى هذه الاهداف ، فلم تحارب الكنيسة ولم يهمل العقل ، ولذلك فكان

منهاج الدراسة مزيجا من اللاهوت والفلسفة . بل هو فى الواقع امتزاج بين المعتقدات المسيحية ومنطق أرسطو . فصاغ المنهج المدرسى العقائد اللاهوتية الكبرى صياغة فلسفية كالمشاكل المرتبطة بالقضاء والقدر وحرية الارادة وعشاء الرب والتثليث وغيرها .

ويلوح أن المعرفة السطحية لبعض جوانب فلسفة أرسطو وأفلاطون جعلت مبادئها على شئ من الوفاق ، ثم بان فيما بعد اختلاف جوهرى فى نظرية المعرفة فأفلاطون اعتقد أن الأفكار هى وحدها التى تتكون منها الحقيقة (المذهب الحقيقى عند المسيحيين الأرثوذكس) وهذه الأفكار موجودة فعلا فى العقل الالهى ، ورأى أرسطو أن الأفكار العامة أسماء وأن الحقيقة هى الموجودة فعلا . كان اختلاف الرأيين ركيزة الحياة العقلية فى هذه الفترة من المصور الوسطى .

وقد سارت نظم التربية المدرسية على أساس منطق المادة ، لا قدرة المتعلمين والمنطق المعترف به وقتئذ هو المنطق القياسى ، وأدى هذا الى صب جميع التلاميذ فى قالب واحد ، فكان الطفل - أى طفل - يتعلم بالطريقة التى تناسب عقل الراشد ، ويدرس مثلا مادة النحو بطريقتها المنطقية الدقيقة .

واستمر هذا الاتجاه التربوى سائدا حتى القرن الخامس عشر ، وقد أنتج الكثير من الكتب وأثر فى عقول الدارسين تأثيرا بالغا ، ورآه فلاسفة القرون التالية جديرا بكل سخرية وتهكم . فقد تحولت الحركة المدرسية الى شكليات تقف فى سبيل كل تقدم ، بل قد وصفت مؤلفاتهم بأنها نوع رخيص من المعرفة وأن مؤلفيها مجانين قد استسلموا لديكتاتورهم أرسطو ، متفوقعين فى أديرتهم بعيدا عن العالم الحقيقى ، ومكبلين بمعرفة لا يريدون لها تطورا . بل اتهمت مؤلفاتهم بأنها تحوى مجردات عقلية لا قيمة لها صيغت فى أسلوب معقد خشن مكتظ بالمصطلحات المزعجة . كما تناولت كتبهم ومحاولاتهم مسائل وهمية لا حقائق واقعية .

ومع كل هذا النقد ، فإن لرجال الحركة المدرسية الفضل فى هز العقل واثارة نشاط فكرى كان الحمول قد استولى عليه عدة قرون ، بل أن هذه الحركة مهدت لظهور ونمو الجامعات .

٦ - الجامعات :

اشتهرت بعض المدارس الكاتدرائية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر حتى أنها جذبت الطلبة ليدرسوا فيها القانون الرومانى وفلسفة أرسطو والطب الى جانب الدراسات الأكاديمية (الفنون العقلية السبعة الحرة) بل ان طلبة كانوا يذهبون الى مدرسة معينة تبعا لشهرة أستاذ فيها ، مثل أبيلاز فى باريس . وجاء طلبة من مناطق نائية طالبين العلم ، وقد تكونت من مجموعات من الطلبة وأساتذتهم ما يشبه النقابة وأطلقوا عليها اسم Universitas كما انتظم الطلبة الأغراب فيما سمي Studium generale وفى القرن الخامس عشر أصبح اسم الجامعة ومدرسة الطلبة المقترين . سنوين .

وتسبب فى ظهور المؤسسات التعليمية ، الصراع بين المذهبيين الواقعى والمثالى واحتكاك الأوربيين بالمسلمين والعرب والثقافة الاغريقية . كما أن ظهور المدن قد غير من وجه الحياة وطور المجتمع الذى تعطش الى تربية تسأيره ، فلم تعد التربية القديمة كافية لسد حاجات هذا المجتمع الذى تغير .

وتميزت الجامعات فى بداية ظهورها بتلقائية الصلة بين الطلبة وأساتذتهم ، هذه الصلة التى كان كان قوامها النشاط الفكرى والنهم للمعرفة . وربط بين الأساتذة والطلبة عنصر مشترك ألا وهو الفقر . كما أن باب التعليم كان مفتوحا لكل طالب قادر على دفع مبلغ زهيد للأستاذ على أن يكون ملما باللغة اللاتينية وهى لغة التعليم . ولم تكن هناك فى بداية الأمر شروط للالتحاق سوى ما ذكرته ، كما أن الجامعات كانت فى منأى عن سلطة الكنيسة والدولة فى فترات نشأتها الأولى (١) .

ثم أغدقت على الجامعات منح ، لعل أهمها المنح البابوية التى أعطت أفرادها حق التجول كمعلمين وطلبة ، وحمايتهم من الاعتداءات عليهم ، وحق محاكمة الطالب أمام مجلس من الجامعة ، وحقق هذا استقلال الجامعات عن الدولة والكنيسة ، ثم حق الحريجين فى التدريس ، وهذا بمثابة شهادة للتخرج ، مع اعفاءات للجامعة وللأساتذة والطلبة من الضرائب والخدمة العسكرية .

ونظمت الجامعات في أول الأمر على أساس أنها تضم طلبية من دول مختلفة ، وكانوا يقسمون داخلها الى مجموعات حسب الدول (كنظام الأروقة في الأزهر) وقسم الأساتذة الى أقسام حسب التخصصات : اللاهوت ، القانون المدني ، الدراسات الأدبية ٠٠٠ الخ . وكانت الجامعات تعد الطلبة لمن القانون والطب واللاهوت والتدريس الجامعي ، وكان الطلبة يدرسون أساسا الفنون العقلية الحرة السبعة لمدة تتراوح بين أربع وسبع سنوات ويمنح الطالب بعدها درجة الاستاذية (الماجستير) ثم يصبح الخريج مدرسا جامعيًا اذا وجد طلبة يدرس لهم ، أو يلحق بوظيفة دينية اذا وجدها أو يصبح موظفا اذا وافته الفرصة ، أو يستكمل الخريج دراسته في القانون أو الطب أو اللاهوت التي تمتد حوالى ثمان سنوات ليحصل الطالب على الدكتوراه ، وتراوحت مدة الدراسة في الطب والقانون بين خمس وثمان سنوات .

وكان التنافس بين الأساتذة كبيرا ، فدخلهم الوحيد مما يدفعه الطلبة مباشرة لهم ، وقد اعتمد الطلبة في معلوماتهم على ما يلقي عليهم داخل الدرس . وكانوا يحفظون ما يكتبون عن ظهر قلب ، فالكتب نادرة ، حتى في تعليم الطب اعتمدوا على معلومات وبعض كتب بسيطة ، كثيرا منها كتبه العرب ، واعتمدت عليه جامعات أوروبا كمؤلفات ابن سينا وشروح وتعليقات عربية في الطب والعلوم .

ولم يكن الطلبة منزهين عن ارتكاب الأخطاء ، فقد عرفنا عقوبات الفصل والحبس لجرائم كالسرقة وعدم حفظ المواعيد .

وبدأت الجامعات عهودها الأولى بدون أدوات ، أو أجهزة أو حتى مبان . فكانت تتخذ من المزارع أو أفنية الكنائس مقاما . وكان الطلبة الموصرين يعيشون في أماكن لا ثقة مع خدمهم . وعاش الفقراء في أي ماوى يجدونه ، وأحيانا كان يسمح بعض القادرين للطلبة الفقراء بالسكنى في ردهات أو قاعات سكنهم . ثم ازدادت مكرمات أهل الخير ، فمُنحت الجامعات الكتب والمباني للإقامة .

وعندما يتقدم الطالب في دراسته كان يسمح له بالقاء محاضرات لعدة سنوات وكان هذا الطالب يسمى Bachelor أى السيد الصغير وهو لقب كان يحمله الفرسان الصغار في خدمة الفرسان الأكبر ، وكان يعقد أحيانا امتحان قبل السماح للطالب بالتدريس ، فاذا نجح أصبح حاملا للدرجة الجامعية

الأولى Bachelor Degree ثم يستعد الطالب لتقديم رسالة للحصول على درجة الأستاذية Master's Degree أو درجة الدكتوراه ، ويدافع عن رسالته أثناء مناقشتها في امتحان عام ، غالبا كان يعقد في الكنيسة ، فإذا نجح في دفاعه ليس قبعة خاصة ، ثم يدعو أصدقاءه الى وليعة ويحق له أن يرتدى (روب الماجستير) ولم يسمح للناث بالدراسة الجامعية .

هذا ، وكان من أول الجامعات في أوروبا جامعة بولونا (حوالى نهاية القرن الحادى عشر) ، وجامعة بادوا ونابولى (القرن الثالث عشر) وجامعة روما (القرن الرابع عشر) ، وفي أسبانيا أنشئت جامعات أهمها سلماثكا فى القرن الثالث عشر ، كما ازدهرت الجامعات فى فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر وأشهرها جامعة باريس . أما الجامعات الانجليزية فأشهرها اكسفورد فى أوائل القرن الثانى عشر ، ثم كمبردج فى القرن الثالث عشر .

ومما يذكر بالفضل للعرب ، كما أورد ذلك منرو ، أن الجامعات الأوربية المسيحية استفادت فى مناهجها ودراساتها بما أعطاه العرب فى ميدان الثقافة فقد أخذ الأوربيون عن العرب منذ القرن العاشر أو الحادى عشر الأرقام الحسابية الهندسية التى حلت محل الرموز الرومانية المعقدة ، كما أثبت العرب كروية الأرض وكانوا يدرسون الجغرافية مستعينين بكرات تمثل كل منها الأرض ، فى الوقت الذى اعتقد مسيحو أوروبا أن الأرض مسطحة ، وقد حول الأوربيون مراصد العرب الى مغارات لنواقيس كنائسهم ، ونقلوا عنهم الجبر وعلم الحساب العالى ، كما ساهم العرب بقسط وافر فى تقدم علوم الطب والتشريح والصيدلة والفلك ووظائف الأعضاء وأضافوا اليها الشئ الكثير من أبحاثهم التى أصبحت أصول هذه العلوم فى عصرنا الحديث . وفى ميدان الطبيعة شرحوا قوانين انتشار الضوء والجاذبية الشعرية ، كما درسوا بعض الظواهر الجغرافية كالشفق وارتفاع الطبقات العليا ووزن الهواء والجاذبية النوعية للأجسام ، ووضعوا الجداول الفلكية ، وصححوا نظريات الموازاة والانعكاس واخترعوا الساعة ذات البندول ، هذا الى جانب اكتشافاتهم الجغرافية والبحرية وما أدخلوه الى أوروبا من مأكولات ونباتات كالأرز والقطن وصناعات السكر والحريز ، بل انهم أعادوا أوروبا علوم استخدام البوصلة والبارود والمدفع .

وقد أقبل كثيرون من الاساتذة الأوربيين على دراسة فلسفة ابن رشد وبخاصة ما كان فيها من شروح لفلسفة أرسطو بل أصبحت شروحه هذه من الأساسيات التى تدرس فى جامعات أوروبا الى جانب كتابات ابن سينا .